رسالة من سلطان المغرب
إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني
إلى الشريف سعد بن زيد سلطان الحرمين الشريفين
(١١٠٥هـ/١٦٩٣م)(١)

أ. د. محمد أمين
كلية الآداب – قسم التاريخ – جامعة الملك سعود

تعد العلاقات بين المغرب الأقصى والحجاز من الأمور الثابتة والمتميزة بمتانتها واستمراريتها، منذ أن أشرق نور الإسلام وانتشر ظله في بلاد المغرب. ولا أدل على تلك المتانة والاستمرارية في العلاقات من التواصل ومتابعة أخبار ما كان يجري ويستجد من أحداث عبر الحجاج، إما مشافهة أو كتابة، كما تدل على ذلك كتب رحلات الحج التي تعد بحق سجلا للكشف عن جوانب من تاريخ الحجاز وبخاصة الحرمان الشريفان. وقد كان موسم أداء شعيرة الحج إلى جانب ذلك مناسبة لتبادل بعض الرسائل والهدايا بين حكام المغرب الأقصى وحكام الحرمين. وتعد تلك المراسلات إلى جانب كتب الرحلات مصادر مكملة، بل وأساسية، لا يمكن الاستغناء عنها لمن يرغب في كتابة صفحات من تاريخ العلاقات المغربية الحجازية. فإلى

---

(١) قدم هذا البحث ضمن فعاليات اللقاء العلمي الثامن للجمعية التاريخية السعودية بمكة المكرمة بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ، وذلك في الفترة ما بين ٩-١١ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ/١٧-١٩ مايو ٢٠٠٥م.

أي حد تعكس رسالة سلطان المغرب - وهي في ثلاث عشرة صفحة من الحجم المتوسط - متانة تلك الروابط؟ ثم ما عساها تكشف من أحداث عرفتها بلاد الحرمين الشريفين وبلغ صداها إلى بلاد المغرب الأقصى؟ وهل تقتصر أهميتها فقط في إثبات ما كان يجري من أحداث، بصفتها مصدرًا مستقلاً، أم تتجاوز ذلك إلى إبراز مدى التفاعل والاهتمام بما كان يجري؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها والكشف عن خبايا هذه الوثيقة المهمة سنتبع الخطوات الآتية:

١ - تعريف بالرسالة وبصاحبها.

٢ - الظرفية التاريخية المحيطة بكتابة الرسالة.

٣ - مضمون الرسالة.

٤ - التعليق والاستنتاجات.

١ - التعريف بالرسالة وبصاحبها:

تتكون هذه الرسالة - وهي مخطوطة لم تسبق دراستها أو نشرها - من سبع ورقات في كل ورقة صفحتان من الحجم المتوسط، وقد بعث بها سلطان المغرب إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني إلى الشريف سعد بن زيد أمير الحرمين الشريفين: مكة المكرمة والمدينة المنورة. وبالرسالة بتر شمل كلا من الصفحة الثانية والصفحة الأخيرة، وهي محفوظة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د ١١٣٩، ومكتوبة بخط مغربي واضح وأنيق، في حين ليست بها أية إشارة إلى تاريخ كتابتها. وقد أشار مؤرخ الدولة العلوية مولاي عبدالرحمن بن زيدان في مؤلفه "المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف" إلى وقوفه على كتاب من هذا السلطان لأمير مكة الشريف سعد بن زيد بن محسن الذي تولى الإمارة بعد أبيه

سنة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م(٢)، غير أنه لم يورد نص الرسالة ولا أشار إلى تاريخ كتابتها. لكن المقارنة بين مضمون الرسالة والتطورات التي مرت بها بلاد الحرمين يجعلنا نعتقد بأنها كتبت وأرسلت بعد وصول الخبر بتولي الشريف سعد بن زيد للمرة الثانية الحكم بمكة سنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م، وذلك بعد غياب بإسطنبول دام ٢١ سنة. والسؤال الملح هو: ما سبب هذه الغيبة الطويلة ؟ وما السر في كتابة سلطان المغرب إليه بهذه المناسبة ؟ لكن قبل الجواب الذي سنعرضه حين تناولنا في النقطة الموالية للظرفية التاريخية المحيطة بكتابة هذه الوثيقة وكشف القضايا المطروقة فيها لابد من التعريف بصاحبها، فمن هو السلطان إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني؟

صاحب هذه الرسالة هو ثالث سلاطين الدولة العلوية إسماعيل بن الشريف بن علي، وقد اقتصر في ديباجة الرسالة على ذكر نسبته إلى الأجداد للتذكير بالنسب الشريف الذي يتصل بالحسن بن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فقال: "بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد. من عبدالله المتوكل على الله الغني به عمن سواه المفوض جميع أموره إليه المعتمد في ساير أحواله عليه إسماعيل بن علي بن الشريف الحسني"(٣)، وقد تولى حكم المغرب في

---

(٢) عبدالرحمن بن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف، تقديم وتحقيق عبدالهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣، ص ٢٠٨.

(٣) المخطوطة، ص ١. وقد أورد عبدالرحمن بن زيدان مؤرخ الدولة العلوية (المنزع اللطيف.. مصدر سابق، ص ٣٠-٣١) شجرة النسب الشريف للسلطان إسماعيل فقال: "فوالده سيدنا الشريف بن سيدنا علي بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف بن الحسن بن محمد بن حسن بن قاسم بن محمد بن الحسن بن عبدالله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد الإمام المهدي ذي النفس الزكية بن عبدالله الكامل بن حسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء البتول بنت مولانا رسول الله ﷺ". وإذا كان هذا هو النسب الصحيح للسلطان إسماعيل، فإن ما ورد في نص الوثيقة أي ذكر: "إسماعيل بن علي بن الشريف" إن لم يكن خلطا أو خطأ من الناسخ، فهو إشارة إلى جد أعلى للأشراف العلويين بالمغرب كما هو واضح في شجرة النسب.

الفترة الممتدة بين سنتي ١٠٨٢هـ/١٦٧٢م-١١٣٩هـ/١٧٢٧م. وإليه يعود الفضل في تثبيت ركائز الدولة العلوية إذ أتم توحيد البلاد، وتنظيم الدولة، ونشر الأمن، كما ربطته ببعض البلاد المسيحية والإسلامية علائق دبلوماسية عكستها مراسلاته المتبادلة بينه وبينها. وقد استقطبت الدولة العثمانية والبلاد التابعة لها في المغرب والمشرق جانبا من اهتماماته، فتميزت علاقاته بالباب العالي بالاحترام والثقة المتبادلة، في حين غلب عليها الحذر فيما يخص ولاية الجزائر التي كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي عن العثمانيين مع استمرار ولائها لهم، كما ربطته صلات مودة مع ولاة تونس من الأسرة الحسينية التي كانت تتمتع بالوضع نفسه، وأيضا مع أشراف الحجاز الذين ظلوا يحكمون بلاد الحرمين نيابة عن السلطان العثماني. وبالجملة فإن السلطان إسماعيل ظل طوال مدة حكمه الطويلة منفتحا على العالم الخارجي ومطلعا على ما كان يجري فيه، وهو ما عكسته رسالته الحالية الموجهة إلى الشريف سعد بن زيد أمير الحجاز باسم العثمانيين.

٢ - الظرفية التاريخية المحيطة بكتابة الرسالة:

لا يمكن إدراك مضمون هذه الرسالة وأبعادها والخروج باستنتاجات منها دون محاولة التعرف على الظروف التي جاءت في سياقها، وهي في اعتقادنا تنقسم إلى ظروف عامة وأخرى خاصة، ولعل هذا ما يدعو لطرح السؤالين الآتيين: كيف كانت أوضاع الحجاز قبيل كتابة هذه الرسالة وبعدها؟ وما موقع الشريف سعد بن زيد مما عرفته بلاد الحرمين من أحداث خلال هذه المدة؟

للإجابة عن هذين السؤالين لابد من إشارات تتعلق أولا بوضع بلاد الحجاز كولاية من ولايات الدولة العثمانية بحيث نقف عند طبيعة علاقتها بمركز الدولة وطبيعة إدارتها وانعكاسات ذلك على أوضاعها؛ وثانيا بالأدوار التي اضطلع بها الأشراف في تلك البلاد

بين ولائهم للعثمانيين وطموحات بعضهم في الاستقلال، ثم موقع ذوي زيد من ذلك.

- **أولا: الظروف العامة.** المتعارف عليه هو أن الدولة العثمانية بعد مدها لنفوذها إلى بلاد الشام ومصر بالقوة ونجاحها في طي صفحة المماليك الشراكسة سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، كانت الطريق مفتوحة أمامها لتسيير جيشها إلى بلاد الحرمين، وبسط نفوذها بالقوة لولا مسارعة الشريف بركات إلى إعلان الولاء ومبايعة السلطان العثماني سليم الأول (٩١٨-٩٢٧هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م)؛ ليضمن بذلك استمرار بقاء الأشراف على رأس الإدارة بالحجاز. ويذهب المستشرق الهولندي سنوك هورخرونيه إلى أن الأوضاع بالحجاز عرفت هدوءا غير مسبوق نتج عن تراجع حدة المنازعات بين الأشراف أنفسهم. وعزا هذا الاستقرار إلى الهيبة التي ارتبطت بصدى نجاحات الجيش العثماني في كل الجبهات، أكثر مما ارتبط حسب رأيه بأي أمر آخر. وقد استمر الوضع على هذا الحال لما يزيد على قرن من الزمان نجح خلاله أبناء الشريف في إبعاد أية سيطرة عسكرية عثمانية عن مكة، معقل حكمهم، كل ذلك في ظل توافق بين الطرفين، إذ "سمح العثمانيون لأبي نمي (ابن الشريف بركات وخليفته ابتداء من سنة ٩٣١هـ/ ١٥٢٥م)، ومن بعده ابنه حسن أن يكونا واليين تابعين للسلطان، ضمن الحدود المرسومة، وعليهما أن يثبتا جدارتهما في السيادة والسلطة"(٤).

لكن هذه الحالة من الهدوء والاستقرار ببلاد الحرمين وكذا في العلاقات بين الأشراف والعثمانيين أو لنقل بينهم وبين باشا الأتراك بجدة لم تدم طويلا، فسرعان ما دخلت في التأثير عليها عوامل أحالتها إلى اضطراب وتقلبات شبه دائمة. وقد كان للطموحات

---

(٤) سنوك هورخرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، نقله إلى العربية علي عودة الشيوخ، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، الجزء الأول، ص ٢٠٧-٢٠٨.

الشخصية في السلطة بين عائلات الأشراف الكبرى وللعوامل المادية دورها في التأثير السلبي على الأوضاع بمكة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وهو ما بلغ صداه الآفاق بفضل حجاج البيت الحرام الذين عايشوا كثيرا من تلك الأحداث، وأصابهم من أذاها الشيء الكثير. ولنا أن نتصور كيف أن اضطراب الأوضاع بسبب ذلك، أدى كثيرًا إلى انعدام الأمن داخل مكة وفي المشاعر الأخرى وفي الطرق من بلاد الحرمين الشريفين وإليها، وهي أمور تواترت الأخبار بذكرها والتشنيع بها وجاء صداها واضحا كذلك في رسالة سلطان المغرب.

- **ثانيا: الظروف الخاصة**. وهي مجمل التطورات التي عرفها الحجاز بعد وفاة الشريف زيد الذي استمر في إمارته خمسا وثلاثين سنة وشهرا وبضعة أيام بدون انقطاع تقريبا (١٠٤٠-١٠٧٧هـ/ ١٦٣١-١٦٦٦م)، تجاوز خلالها بحنكته كل ألوان المناورة والدس سواء من العثمانيين أو من بني عمومته من الأشراف للمساس بسلطته. ومما يؤثر في مرحلة ولايته دعم موارده المالية حين استطاع إقناع العثمانيين بحقوق الإمارة في مكة في واردات جدة الجمركية التي كانت قد ألحقت بالخزانة العثمانية، وأيضا تحببه إلى رعيته بتقريب العلماء ومجالستهم ونشر العدل. لكن هذه الحالة من الاستقرار سرعان ما انقلبت بعد وفاته إلى وضع مضطرب تضافرت في تشكيله عوامل من خارج الحجاز وأخرى من داخله. فالشريف زيد عرف عنه - خلال فترة إمارته الطويلة - كرهه للأتراك، وعدم رضاه بالخضوع لحاكم جدة، فوجد العثمانيون فرصة غيابه مناسبة سانحة للتدخل بشكل أقوى في شؤون الحرمين، كما أن الأشراف المنافسين لذوي زيد - وهم أبناء عمومتهم من العبادلة وآل بركات - كانوا من جانبهم لا ينظرون بعين الرضا لاستئثار أبناء عمومتهم بالولاية لفترة طويلة وتوارثها فيما بينهم، فكانت فرصة غياب الشريف زيد مناسبة للمطالبة بحقهم في تولي الإمارة، وأنها ليست حكرا على ذوي زيد.

ولعل الظروف العسيرة التي ارتقى الشريف سعد فيها كرسي الإمارة بمكة، والتقلبات التي شهدتها فترة حكمه، التي غلب عليها عدم الاستقرار، دليل على حدة تلك المنافسة بين الأشراف من جهة وبينهم وبين والي العثمانيين على جدة من جهة ثانية. وكان ذلك الوالي هو عين الباب العالي ويده الأقرب الذي له دوره في التأثير على مجريات الأحداث ومراقبتها. فالشريف سعد - وعلى عكس ولاية أبيه الطويلة - عرفت فترة ولايته تحديات كان لها بالغ الأثر فيما تميزت به من اضطراب، حيث اعتلى كرسي الإمارة لأربع فترات متقطعة هي كالآتي:

- **الولاية الأولى للشريف سعد بن زيد:** امتدت من سنة ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م إلى سنة ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م، وخلالها لم ينعم بالراحة، حيث واجهته صعوبات تمثلت في خروج أحد أبناء عمومته وهو الشريف حمود بن عبدالله عن طاعته، وانضمام أخيه الشريف محمد بن زيد إلى صفوفه بينبع، كما دخل في خصومة مع والي جدة من قبل العثمانيين لعدم توصله بحصته من الرسوم الجمركية المترتبة على البضائع المستوردة. لكنه نجح في تجاوز هذه المصاعب حين تمكن من استدراج المعارضين له من الأشراف بعد أن استجاب لمطالبهم المادية وضمهم إلى صفوفه لمواجهة والي جدة الذي مني بهزيمة أمامهم، وانتهى الأمر بإقالته. ويبدو أن الشريف سعد أدرك بعد هذه الحادثة خطورة الوضع، خاصة بعد أن أرسل الباب العالي قوة عسكرية بهدف القبض عليه، وهو ما جعله يغادر مكة مع أخيه الشريف أحمد، وبذلك طويت فترة ولاية آل زيد؛ ليحل محلهم الأشراف من آل بركات. وقد عانت مكة وسكانها خلال تلك المرحلة المضطربة من حكم الشريف سعد أشد المعاناة نتيجة انعدام الاستقرار وانعكاس ذلك على أمن الطرق وتحرك القوافل، وهو ما حصل معه غلاء في المعيشة. فيذكر السنجاري، وهو ممن عاصر هذه المرحلة، غلاء الحاجيات بمكة سنة ١٠٧٨هـ، حيث "وصل إردب الحب إلى نحو

خمسين دينارا، بل لم يوجد، حتى أكل الفقراء الرمم، والموتى، والدم"(٥)، وقد أدى أحد كبار المشايخ وهو العلامة محمد بن سليمان المغربي - وكان قد جاور بمكة لفترة ثم انتقل إلى إستانبول - دور مبعوث الباب العالي أو كما سماه سنوك هورخرونيه "المندوب السامي غير العادي"(٦)، بدعم من الصدر الأعظم أحمد باشا فاضل كوبريلي زاده، من أجل إعادة الأمور إلى نصابها بعد مغادرة ذوي زيد. واستمر تأثيره لمدة ثلاث سنوات من ١٠٨٣هـ/١٦٧٢ إلى ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م قام خلالها بإصلاحات دينية ومادية، فقد حارب بعض البدع من قبيل الاحتفال بالمولد النبوي، وتعظيم الأولياء وغيرها من العادات السيئة بمكة، ونظم الأوقاف وألغى الضرائب والرسوم غير الشرعية، فعاد ذلك بالنفع على السكان الفقراء والمجاورين أكثر منه على الأغنياء والأشراف. غير أن تأثير هذا الأخير بمكة سرعان ما تقلص بعد وفاة الصدر الأعظم؛ ليظهر الأشراف من ذوي بركات في الواجهة(٧).

لقد حاول ذوو زيد خلال فترة هيمنة الشيخ المغربي، وتحت مظلته ذوو بركات، زعزعة حكم الشريف بركات وإثارة القبائل ضده، لكن ذلك لم يثمر، الأمر الذي دعا كلا من الشريف سعد وأخيه الشريف أحمد إلى الالتحاق بأسطنبول. وقد امتدت إقامة الشريف سعد بها، حسب أغلب الكتابات، لإحدى وعشرين سنة يقال: إنه حف خلالها بالتعظيم والإجلال، وتولى أثناء ذلك بعض المهام الإدارية(٨). لكن رغم أهمية الروايات التي تحدثت

حاول ذوو زيد فترة هيمنة الشيخ المغربي، زعزعة حكم الشريف بركات وإثارة القبائل

---

(٥) علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، دراسة وتحقيق ماجدة فيصل زكريا، منشورات جامعة أم القرى، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨، ج ٤، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٦) سنوك، المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

(٧) نفسه، ص ٢٣٧.

(٨) نفسه، ص ٢٣٨.

عن وجوده المريح بأسطنبول، وبأنه ظل يصل أقرباءه بإرسال الأموال والهدايا، وبأن وجوده بها لم يكن سوى نفيا اختياريا، فإن ما سيأتي من أخبار عن فترة ولايته الثانية تكاد تجعلنا نشكك فيما سبق ذكره، إذ لا يعقل أن يحاط بكل تلك الحفاوة والتقدير، ثم بعد عودته - وبمباركة من الباب العالي - ينقلب على ذوي نعمته. وفي اعتقادنا إن لم يكن نفيه إليها قد تم بالقوة، فمن المحتمل جدا أن يكون قد استدرج إلى مركز الدولة بالتي هي أحسن من أجل إبعاده عن موطنه، وذلك لما كان يمثله من تهديد بصفته قوة متمردة ضد هيمنة الأتراك وتدخلهم المباشر في شؤون الحجاز. ولتحقيق هدف الإبعاد، وخوفا من أية ردود فعل مناوئة للأتراك من جانب الأشراف من ذوي زيد، نال ما ناله من إعزاز فضلا عن دمجه في سلك الوظيفة. فقد عين السلطان محمد الرابع (١٠٥٨-١٠٩٩هـ/ ١٦٤٨-١٦٨٧م) ، في شهر ربيع الثاني من سنة ١٠٨٧هـ/ ١٦٧٦م، الشريف سعد باشا على مدينة المعرة الواقعة بين حلب وحماة، في حين أعطي أخوه الشريف أحمد سنة ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م حكم قصبة تسمى قرق كليسة أو كرك كنيسة، وهي بلدة تقع في الجانب الأوربي قريبا من أدرنة، ثم عين الشريف سعد بعد ذلك في بلدة قريبة من قرق كليسة استمر بها إلى سنة ١٠٩٤هـ/ ١٦٨٢م(٩). وقد حدد عبدالملك العصامي المكي اسم هذه البلدة بأنها "ويزة بكسر الواو، وتخفيف الزاي، وهي قرية أيضا من كرك كنيسة بينها وبينها ثمان ساعات"(١٠). وأقام الشريفان في الموقعين المذكورين إلى أن جاءهم الأمر السلطاني الذي "فسح لهم بالتوجه إلى حيث شاءوا من الديار الرومية، فتوجه مولانا الشريف سعد إلى إسلام بول، واستمر الشريف أحمد في بلده المذكورة، وطابت له وتأنس بها"(١١). ويبدو أن

---

(٩) السنجاري، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(١٠) عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصامي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، ج ٤، ص ٥٥٣.

(١١) العصامي المكي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٥٥٣.

الشريفين قد قضيا أيضا فترة في أسطنبول نفسها، ظلا خلالها تحت رقابة الإدارة العثمانية. ولا يستبعد أن الشريف سعدا وأخاه كانا مدركين لذلك، ومن ثم سعيا خلال تلك المدة لاكتساب ثقة الباب العالي ورضاه، ويبدو أنهما نجحا في ذلك، وهو ما يفسر بعودة سعد إلى موطنه ومعه مرسوم تعيينه واليا على الحجاز. وحسب محمد المالكي المكي كانت عودة "الشريف سعد من الروم(١٢) سنة ألف ومائة وثلاث، وبقي إلى سنة خمس ومائة وألف، ثم عزل وتولى الشريف عبدالله بن هاشم"(١٣). والسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح بعد هذه الرواية هو: هل كان ولاؤه للعثمانيين صادقا أم مجرد خدعة سرعان ما انكشفت؛ ليفسح المجال لتولي غيره مكانه، بعد أن تبين استحكام عدائه القديم لهم؟

- **الولاية الثانية للشريف سعد بن زيد:** وامتدت من سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م إلى سنة ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م، وبالرغم من التأثيرات التركية الظاهرة عليه بعد عودته من أسطنبول سواء في الملبس أو اللهجة، إلا أن ما ميز إمارته الثانية هو عدم مهادنته للمنافسين من أقربائه ورفضه الخضوع والتسليم التام للأتراك. فما إن استقر بمكة حتى جاءه خبر خروج أحد أبناء عمومته الشريف أحمد بن غالب (من ذوي بركات) عن الطاعة، ومهاجمته للقنفذة واحتلالها، ثم اتجه إلى الليث وبعدها صوب مكة يبغي بسط هيمنته عليها. ثم ما لبث الشريف أحمد بن غالب أن كتب إلى الشريف سعد يستأذنه بدخول مكة دون قتال والعيش بها. وما إن خمدت نار هذه الفتنة حتى أطلت فتن أخرى تزعمها بعض الأشراف من ذوي عبدالله وبعض عشائر

---

(١٢) يقصد بعودة الشريف سعد من الروم؛ أي من القسم الأوربي من الدولة العثمانية المعروف بروم إيلي أو روميليا.

(١٣) الشيخ محمد بن أحمد بن سالم بن محمد المالكي المكي، المعروف بالصباغ (١٢٤٣-١٣٢١)، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ج ٢، ص ٧٩٤.

قبيلة حرب، فتأثر سير القوافل، واضطرب الأمن بمكة، وكثرت اعتداءات اللصوص بها. وفي هذه الأثناء نجح سنجق جدة في استصدار أمر من الباب العالي بعزل الشريف سعد وتولية الشريف عبدالله من ذوي بركات، وهو ما رفضه سعد الذي دخل في مواجهة العسكر العثماني داخل مكة وحواليها، ثم ما لبث أن اضطر لمغادرتها إلى الحسينية جنوب مكة، حيث ظل يتحين الفرصة لاسترداد إمارته التي تولاها من بعده الشريف عبدالله بن هاشم. وقد أدى ذلك الاقتتال إلى سقوط عدد كبير من الضحايا من الجانبين (قيل: حوالي مئة شخص) هذا غير من قتل من الحجاج في مكة، وقد بلغ من آثار هذه الفتنة أن تحينت بعض القبائل الفرصة لنهب الحجاج في طريق عرفة، كما تعثرت حركة القوافل بين مكة وجدة لدرجة أنها لم تكن تجرؤ على الحركة بدون مصاحبة العسكر لها(١٤). وفي اعتقادنا أن رسالة سلطان المغرب كتبت عقب موسم الحج من هذه السنة ١١٠٥هـ/١٦٩٣م؛ لأنها تشير إلى بلوغ الخبر عن عودة الشريف سعد من منفاه ودعوته لتحمل المسؤولية بحزم والتزام العدل والرأفة بالرعية وبضيوف الرحمن، وكأنها أنذرته بمغبة ما قد يحل به فيما لو لم يلتزم بتلك النصائح أو لم يعمل بمقتضاها، وهو ما حصل له بالفعل وأثبتته الوقائع التاريخية.

- **الولاية الثالثة للشريف سعد بن زيد:** وامتدت بين سنتي ١١٠٦هـ/١٦٩٤م و١١١٣هـ/١٧٠١م، لم يستسلم خلالها الشريف سعد لما حصل من تآمر الأتراك في شخص سنجق جدة على إمارته، فما هي إلا بضعة شهور حتى أعد العدة لمواجهة الحليفين. وقد نجح في دحر قواتهم على مشارف مكة، حيث غادر الشريف عبدالله بن هاشم مكة إلى جدة ومنها إلى أسطنبول التي توفي بها في سنة ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م.

---

(١٤) أحمد السباعي، تأريخ مكة: دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ج ٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص ٤٥٢-٤٥٤.

وبهذا الانتصار وبغياب هذا الأخير دشن الشريف سعد بن زيد عودته إلى الواجهة في مكة للمرة الثالثة، ثم ما لبث أن توصل بمرسوم التأييد من السلطان العثماني مصطفى الثاني (١١٠٧-١١١٥هـ/ ١٦٩٥-١٧٠٣م) في أواخر رمضان من هذه السنة نفسها. وغلب على هذه المرحلة من إمارته استقرار الأوضاع بمكة، وتفاديه لمضايقات بعض الأشراف من بني عمومته كذوي بركات وذوي عبدالله، وذلك بالترغيب والحسنى تارة، وبالترهيب واستعمال القوة تارة أخرى. واستمر على هذه الحال إلى أن رأى التنازل عن الإمارة لابنه الشريف سعيد، وجاء التأييد لذلك وبطلب منه من الباب العالي سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م. غير أن إمارة هذا الأخير لم تدم إلا قرابة الثلاث سنوات انقلب بعدها ضده بنو عمومته من الأشراف بعد تلكئه في دفع ما كانوا يعدونه حقا من موارد الإمارة من صدقات وغيرها فثاروا عليه، واضطر لترك الإمارة ومغادرة مكة في ٢١ ربيع الأول ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م. ثم دخل الأشراف مرحلة من الصراع الدامي فيما بينهم تأثر لهوله أمن الطرق خارج مكة وداخلها(١٥). وخلال الستة شهور التي أعقبت خروج الشريف سعيد بن سعد بن زيد من مكة تعاقب على إمارة مكة المكرمة كل من الشريف عبدالمحسن بن أحمد الزيدي الذي اختاره سنجق جدة سليمان باشا بعد أن قرأ مرسوما سلطانيا فوضه ذلك الحق، ثم ما لبث بعد تسعة أيام أن تنازل عن الإمارة للشريف عبدالكريم بن محمد بن يعلى من ذوي بركات، لتخرج بذلك الإمارة من ذوي زيد. وخلال هذه المدة استطاع الشريف سعيد بن سعد بن زيد استمالة بعض قبائل جهينة، ونجح في احتلال ينبع والاستيلاء على غلال الصدقة الخاصة بمكة التي وزعها على أنصاره، ثم ما لبث أن انتصر على الجيش الذي وجهه الشريف عبدالكريم إليه في واقعة وصفت بالشديدة في ١٤ جمادى الأولى ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م(١٦).

---

(١٥) أحمد السباعي، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٤٥٦-٤٦١.

(١٦) نفسه، ص ٤٦١.

- **الولاية الرابعة للشريف سعد بن زيد:** ظل الشريف سعد بن زيد إلى حدود الواقعة المذكورة سلفًا مقيما بمكة، ويبدو أنه غضب بعد أن أوقف الشريف عبدالكريم ما كان مخصصا له من نفقة، كما يجوز أن يكون انتصار ابنه في ينبع قد حفزه للدخول في مواجهة مباشرة مع خصم ابنه، فدخل بذلك في مواجهة مباشرة مع قوة الشريف بعد أن ساندته بعض القبائل المجاورة لمكة، في حين ساندت قوة من الأتراك والمغاربة من عسكر باشا جدة الشريف عبدالكريم. وقد قتل في هذه المواجهات خلق كثير، ثم احتل الطائف في ٢٦ رمضان ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م، وانتقل بعد ذلك إلى مكة التي دخلها منتصرا على خصومه في ٢٩ رمضان من السنة نفسها، ثم نودي بإمارة الشريف سعد للمرة الرابعة. وفي غمرة انتصاره أمعن مناصروه في إلحاق ألوان الأذى بأهل مكة، "فنهبوا كثيرا من بيوتها حتى كانوا ينزعون الثياب من أجساد أصحابها، وهاجموا كثيرا من البيوت، وساموا الناس أنواعا من الذل والإهانة، فاشتد الذعر بالناس، وأسقطت بعض الحوامل من هول ما يجري"(١٧). وقد علق أحمد السباعي على ما جرى بقوله: "وبذلك كتب الشريف سعد في تاريخه الطويل صفحة من أحلك الصفحات سوادا في تاريخ مكة"(١٨). ثم ما لبث الشريف عبدالكريم الذي غادر مكة منكسرا أن جمع بني عمومته وأنصاره من قبيلة عتيبة وحرب، فهاجم مكة، واحتلها في ١٧ شوال ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م بعد أن أجلى الشريف سعدا عنها إلى العابدية غربي عرفات، حيث توفي بعد ذلك بأيام، لتنتهي ولايته الرابعة التي لم تدم إلا ١٨ يوما(١٩).

بعد غياب الشريف سعد دخلت مكة مرحلة من الفوضى العارمة امتدت لما يزيد على خمسة أشهر، حيث اشتدت المنافسة والتقاتل بين

---

(١٧) نفسه، ص ٤٦٣.

(١٨) نفسهما.

(١٩) نفسه، ص ٤٦٤.

الشريفين سعيد بن سعد بن زيد وعبدالكريم بن محمد بن يعلى، وتأذى لذلك أهل مكة، وقتل من جراء ذلك خلق كثير. وقد ساعد على تدهور الأوضاع السياسية والأمنية بالحجاز عدم قدرة الباب العالي على ضبط الأمور نتيجة التقلبات المتسارعة وتضارب المعلومات الواردة بشأنها من كل من والي مصر وسنجق جدة المتنافسين. فقد عاد الشريف سعيد للإمارة للمرة الرابعة بدعم من والي مصر الذي كان على خلاف مع سنجق جدة الموالي بدوره للشريف عبدالكريم، وتوصل الشريف سعيد بمرسوم تعيينه في ٦ ذي الحجة عام ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م، وما هي إلا بضعة شهور حتى تلقى الشريف عبدالكريم بدوره من سنجق جدة مرسوما بولايته في ١٨ رجب ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م، وبين تعيين الأول والثاني اقتتال بين الطرفين وخسائر حلت بمكة وأهلها على كل المستويات(٢٠).

لقد جاءت رسالة سلطان المغرب المولى إسماعيل ضمن إطار هذه الظرفية العامة في مكة والحجاز بشكل عام، حيث تميزت إدارة الأشراف لهذه البلاد تحت مظلة العثمانيين بصفتها إحدى أهم ولاياتهم المترامية في ذلك الحين: أوربا الشرقية (إقليم الروماللي) وآسيا الصغرى أو هضبة الأناضول والشرق العربي بما في ذلك العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز ثم بلاد المغرب بما فيها طرابلس الغرب وتونس والجزائر) بنوع من التخبط الناجم أصلا عن طبيعة إدارة العثمانيين لجميع الأقاليم التابعة لهم. فقد اكتفى العثمانيون بعد فتوحهم لجهات كثيرة من بلاد الشام وفي الحجاز بولاء بعض الزعامات لهم، كما هو شأن الأشراف، وقبولها العيش ضمن السيادة العثمانية مع ما يفرض ذلك من واجبات وحقوق متبادلة، دون إدخال تغيير جذري يمس مصالح هذه الفئات. هذه السياسة العامة للدولة تجاه إدارة العديد من الولايات التابعة لها كانت في البداية تحت

---

(٢٠) نفسه، ص ٤٦٧-٤٦٨.

السيطرة نتيجة هيبة الدولة، إبان مرحلة الإنجازات العسكرية المدوية وخلال حكم السلاطين العظام المؤثرين من آل عثمان (سليم الأول وسليمان القانوني)، لكن هذا الوضع عرف تغيرا كبيرا خلال القرن السابع عشر الميلادي نتيجة الخلخلة التي باتت تعرفها الدولة في كثير من المجالات (على المستويات العسكرية والأوضاع الداخلية)، وهو ما شجع العديد من إدارات الولايات، خاصة البعيدة عن مركز الدولة، على المناورة من أجل إثبات الذات أو الحصول على شكل من أشكال الاستقلال. ولعل ما تميزت به الأوضاع ببلاد الحرمين من اضطراب شبه دائم نتيجة تنافس عائلات الأشراف وتقاتلها فيما بينها من أجل إثبات الأحقية في الإمارة، ومحاولة بعضهم رفض تدخل والي جدة من قبل الباب العالي في شؤون البلد الحرام والثورة عليه وقتاله في بعض الأحيان دليل على عجز الدولة العثمانية، كما تجلى ذلك بعد عودة الشريف سعد بن زيد من أسطنبول التي أمضى فيها إحدى وعشرين سنة، اطلع خلالها على مجريات أمور الدولة عن قرب، خاصة في مرحلة تميزت بتدخل كبير للصدور العظام من آل كوبرولو في تسيير دفة الحكم بدعم من أمهات السلاطين، وضعف بعض هؤلاء في الإمساك بزمام الأمور. وقد كان للوضع الإداري المضطرب من قبل الأشراف نتيجة لما سبق ذكره آثاره المباشرة على الأوضاع الدينية والاجتماعية (حتى السلوكية منها) والاقتصادية في البلد الحرام وتداعياته على السكان وضيوف الرحمن. ورسالة سلطان المغرب وهو الشريف الذي تربطه بأشراف الحجاز أواصر القربى والانتماء (ينبع النخل) تناولت في بعدها العام هذه الأوضاع داعية إلى إصلاح الخلل بما يسمح باستقرار الأوضاع والتمكين.

٣ - مضمون الرسالة:

قبل تناول مضمون هذه الرسالة لابد من الإشارة إلى ملحوظتين:

- أن الرسالة رغم حجمها الصغير نسبيا وبتر الصفحتين الثانية والأخيرة منها، حملت معلومات غزيرة تم عرضها بطريقة منطقية وأسلوب سلس، تجعل قارئها يقبل عليها بلهفة للتعرف على الغاية منها.
- أنها جاءت حية نابضة بما تضمنته من شواهد من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتاريخ في أسلوب وعظي يتراوح بين الترغيب والترهيب.

أما مضمون هذه الرسالة فيتلخص في فكرة عامة جامعة هي نصيحة سلطان المغرب المولى إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني للشريف سعد بن زيد سلطان الحرمين في أمور تتعلق بحكمه للبلد الحرام. وهي في جوهرها تتناول: ما يحسن الاهتمام به وطلبه، وما ينبغي الانتباه منه وتجنبه. وتم التمهيد لكل ذلك بذكر فضل الحرمين وأجر وثواب من ولاه الله أمرهما، فكان مستقيما وأدى الأمانة، دون إغفال الإشارة في ثنايا الرسالة إلى ظروف كتابتها، والداعي إلى ذلك، وكذا التعريف بالشخص الذي كلف بإبلاغها إلى الشريف سعد. ويلحظ القارئ للرسالة مدى اطلاع السلطان المغربي على أحوال الحرمين في ظل حكم الأشراف على المستويات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية. وفي ما يأتي أهم الأفكار الجزئية كما هي واردة في الوثيقة:

- التذكير بأهمية وفضل النصيحة خاصة لمن ولاه الله تعالى أمر الحرمين الشريفين.
- ذكر فضائل الحرم المكي: فيه بيت الله ومقام إبراهيم عليه السلام وفي أرضه ولد الرسول ﷺ وفيه ظهرت نبوته وما اتصل بها من معجزات، وبعثته، وابتداء الوحي وإسراؤه.

- ذكر فضائل طيبة ومكانتها في الإسلام: فهي دار الهجرة وبها منازل الوحي، وفيها أكمل الدين، ومنها أرسلت البعوث والسرايا، وفيها أعز الإسلام، وفيها قبض الرسول ﷺ، واستقامت الخلافة، ووقعت الفتوحات في المشرق والمغرب، ومنها اجتثت قواعد الدول الكبرى "الفارسية الكسروية والرومية القيصرية والتركية الخاقانية والديلمية والحبشية والبربرية"(٢١).

- تهنئة الشريف سعد بولايته الحرمين ونصحه بشكر النعمة والتزام العدل، "ومن أنعم الله عليه بولاية الحرمين الشريفين فهو الذي يجب على من يحبه أن يهنئه بما أنعم الله عليه، فهنيئا هنيئا لك بما خولك الله وأولاك، والواجب عليك أن تتعرف فضل الله ونعمه وتشكر كرمه، قال تعالى: و﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ [**إبراهيم**: ٧]، وقد قال رسول الله ﷺ: [فبروا النعم بالشكر]"(٢٢)، وفي هذا إشارة ضمنية إلى عودته بعد غيابه الطويل في إسطنبول إلى كرسي الإمارة بمكة، وتذكيره بما يستقيم به حكمه ويستمر، إذ شكر النعم مدعاة للزيادة والاستمرار.

- السلطان يذكر الشريف سعدا بالقرابة التي بينهما، وأنها سر النصح الصادق المؤثر بقوله: "وإذا صدرت التذكرة، ووقعت الموعظة والتبصرة من أهل بيت واحد كانت أوقع في النفوس"(٢٣)، فيلحظ في ذلك أنه يعتمد أسلوبي اللين وتطييب النفس في النصيحة، وهما من الآداب المطلوبة والمساعدة على نجاح مهمة الناصح.

- السلطان يبرر سبب إسدائه النصيحة، فيذكر من ذلك مكانة الحرمين الشريفين في نفسه وشعوره القوي بالصدق والإخلاص في أداء النصح، "فالرجل لا تتوق نفسه إلى مسألة يخاطب بها ولا

---

(٢١) المخطوطة، ص ٤.

(٢٢) نفسها، ص ٦-٧.

(٢٣) نفسها، ص ٧.

إلى نصيحة يؤديها إلا إذا عرف من نفسه أنها خالصة لوجه الله الكريم، وعرف ممن يخاطبه بها أنه يقبلها، فإن النصيحة كالحكمة التي قال فيها رسول الله ﷺ: [لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم]، وأي فائدة وحكمة تكون أو تطلب ككلمة ينفع الله بها جمعا من المسلمين"(٢٤). وفي ذكر السلطان لهذه الأسباب إشارة إلى شرطين ضروريين للنصيحة ذات الفائدة، وهما: الإخلاص لله في أدائها، والمعرفة بإمكان قبولها من طرف المخاطب بها.

- السلطان ينتقل في نصيحته للشريف سعد بن زيد من الإشارات الضمنية السابقة لما حل به من نكبة النفي إلى إفصاح وإشارات صريحة وواضحة في قوله: "... وقد كنت قبل هذا في ولاية تلك الأماكن الشريفة، وسعدت بك وبأبيك من قبلك تلكم الأقطار كلها، إذ داركم دار الإمارة والمملكة والبركة يعرفها الناس قرباء أو بعداء بأسرهم، ويفدونها بأموالهم وأنفسهم، ثم كان من قدر الله ما كان فأقمت سنين عديدة في غير أرضك ووطنك، وأصبحت مفارقا لأهلك وأولادك وسكنك، فليعتبر ابن عمنا بما فات عليه وليتذكر، قال الله تعالى: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ [الحشر: ٢]"(٢٥).
- السلطان يرفع من قدر الشريف سعد وكونه خصه بكتابة هذه الرسالة وشرفه بها دون غيره، حيث لم يحظ بهذا الاهتمام الشريف أحمد بن غالب، وهو أيضا من قرابة السلطان، ويتساوى مع الشريف سعد في النسب الشريف، وبالرغم مما أثر عنه من إكرام لبني عمومة السلطان حين قدومهم للحج. ومما قاله السلطان في حق هذا الأخير: "... فلم تسكن له أنفسنا ولا طابت بولايته خواطرنا وإن كان هو يعرف حقنا ولا يجهل قدرنا، ودائما

---

(٢٤) نفسها، ص ٧-٨.

(٢٥) نفسها، ص ٨.

كان يكاتبنا ويواصلنا ويعمل الخير مع أبناء عمنا، ولقد كان ابن عمنا مولاي عمر بن هاشم - رحمه الله - أيام قدومه للحجاز تعارف معه واصطحبا وعمل معه خيرا كثيرا، ولما جاء من هنالك أعاد علينا جميع ما عمله معه من الخير، ومع ذلك فلم نجبه عن كتبه إلا بمجرد السلام والمواصلة، وقط ما خاطبناه بنصيحة ولا أدرنا معه كلاما بما هو زائد على السلام الواجب رده بين الأنام، وأما أنت والله كانت نفوسنا تميل إليك وتأنس بك"(٢٦).

- السلطان يتحدث بما يفيد أنه متتبع للمستجدات ببلاد الحرمين، واستبشاره بعودة سعد إلى كرسي الإمارة: "وعندما بلغ وفد الحجاج أول ما سألنا شيخ الركب الشيخ الحسني عنك؛ فبشرنا برجوعك لبلدك ووطنك وأخبرنا بعودتك لذلك الحرم الشريف بولاية عملك، ففرحنا بذلك فرحا كبيرا، وسررنا والله سرورا كثيرا، وحمدنا الله لكم وشكرناه، وأثنينا عليه بما هو أهله، وطابت نفوسنا بولايتك، وسكنت خواطرنا من جهتك، واستشرفت قلوبنا إلى تهنئتك"(٢٧).
- السلطان يذكر ظروف كتابة الرسالة وإسراعه في إرسالها بقوله: "ففكرنا في قدوم الحاج لتلكم البلاد، فرأيناه يبطؤ علينا، وألقى الله في خلدنا هذا الكلام وكتبنا به إليك. والله ثم والله ما شرعنا في كتبه لك إلا في اليوم الثالث من قدوم الحاج"(٢٨).
- السلطان يعرف بالشخص الذي كلف بالسفارة إلى سعد لأجل إبلاغه الرسالة وبسبب اختياره دون غيره، فهو "الحاج أحمد لما عهدناه فيه من الفائدة والنجدة والصبر، وقد كان قبل هذا بالبلاد المشرقية، وجال في تلكم الأقطار، وتردد ما بين حواضرها وبواديها

---

(٢٦) نفسها، ص ٩.

(٢٧) نفسها، ص ٩-١٠.

(٢٨) نفسها، ص ١٠.

سفيرا وساعيا بين تجارها وأعيانها نحوا من ثمانية عشر سنة [هكذا: ثماني عشرة]، فهو يعرف تلكم النواحي كلها، ويصبر للطريق برا وبحرا، إلى ما يضاف إلى ذلك من مداخلته معنا وملازمته في غالب الأوقات لنا، فمن لدن رجع من المشرق وهو متصل الخدمة بنا عارف بما لم يعرفه غيره من سيرنا، وهو واحد من الملازمين لأعتاب دارنا العلية بالله، فاخترناه لهذه المسألة من هذه الحيثية"(٢٩).

- بعد الإشارات الضمنية ثم الصريحة لما حل بالشريف سعد من نفي، بعد ولايته الأولى، وحتى لا يفهم أن الغاية من كتابة هذه الرسالة هو التقريع والفضيحة للمنصوح، وهو ما قد ينتج عنه النفور والعداوة للناصح، وبعد الإشادة بصلات القربى الموجبة لنصيحة القريب طلبا لما فيه الخير له وتخصيصه دون غيره من الأقارب الذين ارتقوا الولاية نفسها بمكة المكرمة بشرف الكتابة له، بعد كل ذلك حاول السلطان إجمال ما سبق ذكره بالإشارة إلى أن الكتابة للشريف سعد وتأدية النصيحة له هي دليل عناية خاصة به يقصد من ورائها الحصول على الثواب والنفع للمنصوح، وهو ما عبر عنه بأسلوب يهيئ النفس لتقبل ما بعده من نصيحة، إذ قال: "وبادرنا لك بهذا الكتاب معه [أي مع مبعوث السلطان] اعتناء بك وتأدية لنصحك، وأرجو الله تعالى أن يقع منك موقعا ننتفع نحن بثواب أداء النصيحة وتجار [هكذا: تؤجر] إن شاء الله عليها، وتنتفع أنت بقبول ذلك وبالعمل به، ويكون بحول الله وقوته سلما وسببا بيننا إلى مواصلة كبيرة واستدامة مودات كثيرة، ونجد معا بركة لذلك الحرم الشريف في أنفسنا وذريتنا"(٣٠).
- بعد هذه المقدمات العامة والخاصة التي استغرقت عشر صفحات (من الحجم الصغير) ونصف الصفحة الحادية عشرة من الرسالة،

---

(٢٩) نفسها، ص ١٠-١١.

(٣٠) نفسها، ص ١١.

يدخل السلطان في جوهر النصيحة وإلى غاية الصفحة الرابعة عشرة، وأهم ما ورد فيها ما يأتي:

١ - دعوة الشريف سعد إلى الحزم في أمور ولايته: لين في غير ضعف، وذلك من خلال التزام الحق، والضرب على أيدي أهل الباطل ورحمة المستضعفين والمساكين، ومراعاة الله في حرمه وحرم رسوله ﷺ، "وأي حرمة كحرمة أمته وأهل شريعته وملته"(٣١).

٢ - دعوته للاهتمام بالحجاج والمعتمرين وبطيبة نفس في قوله: "وأن تحب الضعفاء والمساكين الواردين على تلكم المعالم والمشاهد بقلب شائق وحب صادق"(٣٢).

٣ - تنصيب من يوصل حاجات الناس إليه.

٤ - نصرة الحق.

٥ - استشعار المسؤولية الملقاة على عاتقه.

٦ - المحافظة على ما به يكون التمكين: من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٧ - الخوف واتقاء دعوة المظلوم.

٨ - التفكر فيما جاء من حكم في وصية لقمان لابنه: من إقامة الصلاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر والصبر على المصيبة وتجنب الكبر والخيلاء.

٩ - صلة الرحم.

١٠ - التفكر فيما كان عليه السلف الصالح من صفات إبان حكمهم لبلاد الحرمين، "فاستقامت لهم الدنيا والدين وصلحت بصلاح أحوالهم جميع أمور المسلمين"(٣٣).

---

(٣١) نفسهما.

(٣٢) نفسها، ص ١٢.

(٣٣) نفسها، ص ١٣.

١١ - العدل مطلوب ومستحسن في كل بقاع الأرض وفي بلاد الحرمين الشريفين أشد استحسانا وطلبا، "فولاية نحو يوم وليلة في ذلك الحرم يعدل الإنسان فيهما أحب إلى من نور الله بصيرته من كلما [هكذا: كل ما] يهواه ويتمناه"(٣٤).

١٢ - التركيز على فكرة العدل سابقة الذكر وربطها بفكرة الحزم التي جاءت في أول النصيحة والتفصيل فيهما، "فنحب منك أن تأخذ بطريق العدل والحزم وحسن التدبير في جميع أحوالك وتكون ضابطا محتزما [هكذ] في كلما [هكذا: كل ما] هنالك"(٣٥).

١٣ - التذكير مرة أخرى بأسباب الكتابة إلى الشريف سعد ونصحه، "فما كتبناه لك إلا ثقة بأخوتك وحمية على مروءتك وصحبة فيك واعتبارا بما فات عليك، والكيس من الناس من دان نفسه، وقدم أمور دينه على أمور دنياه، وزهد فيما عند الناس رغبة فيما عند الله، والعاقل من نظر في العواقب فتدبرها، ونظر لما فات عليه من الأمور وتذكرها، ففي كلام الحكمة: تعاقب الأحفاد بما فعلته الأجداد، فلينظر أخونا وابن عمنا لنفسه وولده، ويعمل بما يرضي ربه في بلده، فقد حملتنا محبة ذلك الحرم الشريف وإيثار ذلك الجناب الطاهر المنيف على تذكرتك ونصيحتك، وقد عودنا الله سبحانه التذكرة والنصيحة لجميع من عرفناه من المسلمين ووجدنا ... "(٣٦).

٤ - التعليق والاستنتاجات:

هذه بعض من الملاحظات التي خلصنا إليها بعد عرضنا للخطوات السابقة التي عكست مدى أهمية هذا النوع من المراسلات في

---

(٣٤) نفسها، ص ١٤.

(٣٥) نفسهما.

(٣٦) نفسهما.

الكشف عن جوانب من التاريخ المشترك والروابط المتينة بين المغرب الأقصى وبلاد الحرمين الشريفين.

أولا - التعليق:

سنتناول في تعليقنا عن هذه الوثيقة المهمة النقاط الآتية:

أ - نقد الرسالة لنفي أو إثبات صحة وجودها أصلا وكذا صحة نسبتها إلى سلطان المغرب: وفي هذا الصدد لابد من التسليم بصعوبة الحصول على نسخة منها لدى الطرف المرسلة إليه، إذ للظروف المضطربة وغير المستقرة التي مر بها حكم آل زيد لبلاد الحرمين - خاصة في عهد الشريف سعد - أثرها السلبي في ذلك. إلا أننا لا نستبعد أن يظهر في أرشيف العائلات الشريفة من آل زيد في يوم من الأيام ما يثبت وصول رسالة سلطان المغرب إلى الشريف سعد بن زيد وجوابه عنها. لكن في مقابل ذلك كل الدلائل تؤكد صحةَ وجودها ونسبتها إلى سلطان المغرب، فيلحظ اتفاق الدليل من صميم الرسالة، حيث الإشارة إلى مرسلها السلطان إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني، مع ورود الإشارات الدالة على ثبوت كتابتها في مصادر مغربية وذكر اسم ونسب من وجهت إليه كما هي الحال في كتاب "المنزع اللطيف" المذكور سابقًا، وهذا في اعتقادنا كاف للدلالة على صحة الوجود والنسبة، هذا فضلا عن حفظ نسخة من هذه الرسالة في الأرشيف المغربي. لكن يبقى السؤال الآتي مطروحا: هل أجاب الشريف سعد بن زيد سلطان المغرب عن هذه الرسالة أو لم يجب؟ هذا إن كان توصل بها بالفعل، وذلك على غرار ما تحدث عنه السلطان نفسه من تبادل رسائل في السابق مع أشراف آخرين. أما إن لم يكن قد توصل بها أو توصل بها وأجاب وليس لنا من جانبه ما يثبت ذلك، فعزاؤنا هو أن نعثر في الأرشيف المغربي عما يؤكد جوابه عنها.

ب – نقد مضمون الرسالة لإبراز الأخطاء المعلوماتية أو التاريخية في نصها، ومدى مطابقة الوصف الوارد ضمنها مع الظرفية التاريخية التي مرت بها بلاد الحرمين الشريفين في ولاية الشريف سعد بن زيد، وأيضا مقارنة ذلك مع المعلومات الواردة في مصادر أخرى. وهنا يلحظ، اعتمادا على كل ما سبق عرضه، أنه سواء بالنسبة للجانب الوعظي أو العملي التوجيهي من مضمون هذه الوثيقة النصيحة أن كل الأدلة تثبت صحة المعلومات الواردة فيها وتطابقها مع المنقول والأحداث التاريخية. بالنسبة للشق الأول من مضمون الوثيقة، خاصة طبيعتها كنصيحة، فإن كل ما جاء فيها كان مدعما بالشواهد من القرآن الكريم والأحايث النبوية الشريفة وسيرة الصحابة الثابتة وتاريخ الرجال والدول المؤكد في المصادر التاريخية. لكن هناك ملحوظة واحدة بالنسبة لهذا الشق من الرسالة، وهي الإشارة إلى تدخل خالد بن الوليد في المناظرة التي جمعت المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وهو ما لم يتأكد في المصادر المعتبرة كتاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، وتاريخ الخلفاء للسيوطي وغيرها. أما بالنسبة للشق الثاني المتعلق بتطابق الصورة التي تعكسها الرسالة مع الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في بلاد الحرمين الشريفين في ظل حكم الأشراف خلال العهد العثماني، فيلحظ تطابق الغاية من كتابة الرسالة ومضمونها مع واقع الحال في عهد ولاية الشريف سعد بن زيد.

كل الأدلة تثبت صحة المعلومات الواردة فيها وتطابقها مع المنقول والأحداث التاريخية

ج – أهمية هذه الرسالة ومدى إسهامها في الكشف عن غامض أو إضافة جديد أو إثبات واقع، ويلحظ أن هذه الوثيقة أسهمت بحق في تصحيح ما كان شائعا من أن سعدا إنما عاش في

أسطنبول إحدى وعشرين سنة برغبة منه ودون إكراه. والواقع كما تؤكده المصادر والمراجع في شأن طبيعة علاقته بالأتراك قبل إقامته في العاصمة العثمانية وبعدها، والتي تميزت بالاضطراب، وكما تبينه الوثيقة من خلال الإشارة مرارا إلى التهنئة بالعودة للأهل والوطن وتنبيهه بتفادي ما من شأنه أن يعرضه للمصير نفسه من ضياع شرف حكم بلاد الحرمين والإبعاد عنها، كل ذلك يعكس أهمية هذه الرسالة، وإسهامها في تصحيح مثل هذه الأخطاء.

ثانيا - الاستنتاجات:

يستنتج من مضمون هذه الرسالة المخطوطة ما يأتي:

أ - أنها تدخل ضمن أدبيات ما عرف بالسياسة الشرعية الواجب على الحاكم التزامها في حكمه لبلده ورعيته.

ب - أنها تؤكد الصورة الدرامية للوضع ببلاد الحرمين في ظل حكم الأشراف وتعكس جوانب منه.

ج - أنها تصحح خطأ، شاع تداوله في الكثير من المصادر والمراجع عن مرحلة ولاية الشريف سعد بن زيد لبلاد الحرمين، وخاصة ما تعلق منها بالفترة الطويلة التي قضاها في منفاه بأسطنبول وغيرها من المدن. فتهنئة السلطان للشريف سعد على عودته لأهله ووطنه ودعوته لأخذ العبرة بما مر عليه أثناء غيبته، وحفزه على التزام العدل والحزم في أموره، كلها أمور تدل على أن إقامته في مدينة المعرة وقرية ويزة ثم بالعاصمة العثمانية لم تكن نزهة بل نفيا قهريا. ويؤكد العصامي المكي ما توحي به رسالة السلطان إسماعيل عند حديثه عن حلول السلطان العثماني أحمد الثاني بأدرنة، وكان ذلك بعد توليه السلطة سنة ١١٠٣هـ/ ١٦٩١م، وكونه "فسح لهم (إشارة للشريفين أحمد وسعد) بالتوجه

إلى حيث شاؤوا من الديار الرومية"(٣٧). فيفهم من ذلك أن تعيينهما في كرك كنيسة بالنسبة للشريف أحمد وفي ويزة بالنسبة للشريف سعد، وقبل ذلك في المعرة بالنسبة لهذا الأخير، كل ذلك كان إمعانا في شغلهما عما كان يدور ببلاد الحرمين ووضعهما تحت الرقابة المباشرة للإدارة العثمانية. ويبدو أن إفساح المجال لهما بالتنقل الحر بعد ذلك دليل على وثوق السلطان العثماني بصدق ولائهما.

د - أنها تثبت أهمية هذا النوع من الوثائق التاريخية، وتحفز على المضي في جمعها سواء في الأرشيف المغربي، وقد وقفت على ما يثبت ذلك في الأرشيف الحسني (الملكي سابقا) وبالخزانة الوطنية أو الخزانة العامة التي استخرجت منها هذه الرسالة.

هـ - أن هذه الرسالة من سلطان المغرب تثير أكثر من سؤال بالنسبة للمهتم بتحليل الخطاب وخلفياته. فالقارئ للرسالة يلحظ أنها بمثابة ناقوس إنذار لمن وجهت إليه، فهي رغم عبارات المودة والمجاملة تضمنت مقاطع قوية تهدف لما هو أبعد. فهي تضع الشريف سعدا أمام مسؤوليات جسيمة تتراوح بين ما هو عام وما هو خاص:

- فبالنسبة لما هو عام، يلحظ أن التركيز في الرسالة جاء منذ البداية منصبا على تأكيد أواصر القربى والمكانة السياسية من خلال استعمال لقب سلطان، فقد خاطب السلطان إسماعيل سعدا بقوله: "إلى... أخينا وابن عمنا الشريف المحترم السلطان سعد بن المقدس المرحوم بكرم الله السلطان زيد"(٣٨)، ثم جاءت الصفحات التي أعقبت ذلك لتدعم بالمنقول مشروعية ولاية الشريف سعد على بلاد الحرمين الشريفين.

---

(٣٧) العصامي المكي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٥٥٣.

(٣٨) المخطوطة، ص ١.

- أما بالنسبة لما هو خاص، فقد جاء مجملا في نصائح من شأنها أن تدعم سلطة الشريف سعد في مقابل أية هزات سواء كانت محلية من بني عمومته أو من جهة الإدارة العثمانية، فقد جاءت التوجيهات في الرسالة تدعو الشريف سعدا إلى أن يتعامل مع القضايا المتعلقة بحكمه لبلاد الحرمين الشريفين بحزم مع تجاوز كل السلبيات التي كانت سببا فيما حل به في السابق. فقد جاء في نص الرسالة: "فنحب منك أن تأخذ بطريق العدل والحزم وحسن التدبير في جميع أحوالك وتكون ضابطا محتزما (حازما)"(٣٩)، فيلحظ تكرار توجيه النصح له بالحزم تجنبا لما حل به وتذكيره بسوء العاقبة إن لم ينتبه لذلك؛ إذ "العاقل من نظر في العواقب فتدبرها، ونظر لما فات عليه من الأمور وتذكرها"(٤٠). فهل استفاد الشريف سعد من هذه النصائح وتدبرها أو لم يستفد؟ الواقع أن تاريخ ولايات الشريف سعد الأربع - كما سبق رصدها - يشهد بأن الرجل لم يصحح سيرته وسياسته، الأمر الذي جعل التقييم العام لفترات حكمه المتقطعة لبلاد الحرمين الشريفين كان بشكل عام سلبيا للغاية عكس مرحلة حكم والده زيد الذي استمر لخمس وثلاثين سنة، والذي استطاع بحنكته ومرونته تجاوز أغلب العوائق والدسائس سواء من بني عمومته من الأشراف أو من الأتراك العثمانيين.

---

(٣٩) نفسها، ص ١٤.

(٤٠) نفسهما.

ملحق

نص رسالة سلطان المغرب إسماعيل بن الشريف بن علي الحسني إلى سلطان الحرمين الشريفين سعد بن زيد[٤١]

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد، من عبدالله المتوكل على الله الغني به عمن سواه المفوض جميع أموره إليه المعتمد في ساير أحواله عليه إسماعيل بن علي بن الشريف الحسني.

إلى من تحلت الأيام بمحاسن شيمه، وأحجمت الأقلام دون مراقي همه، الأرقى الأنقى الأزكى أخينا وابن عمنا الشريف المحترم السلطان سعد بن المقدس المرحوم بكرم الله السلطان زيد أسعدنا الله وإياكم باتباع مناهج رشاده، ووفقنا وإياكم لمصالح بلاده وعباده، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته أما بعد، فقد كتبناه لسيادتكم وأنهيناه لمجادتكم عن ود ثابت الأساس، وعهد جار في طريق المحبة على [١] (الصفحة الثانية مبتورة [٢]) وأربابها وموضعها، والنصيحة عامة الوجوب محمودة المطلوب، سيما لأهل ذلك الحرم الشريف والجناب المعظم المنيف الذي هو حرم الله وحرم رسوله ﷺ. وقد عظمه الله تعالى، وورد فيه من الآي القرآنية والأحاديث النبوية ما فيه كفاية لقلب كل من يؤمن بالله ورسوله، فإنه بيت الله ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام وحج المسلمين، ومنه أول أرض مست نسمة رسول الله ﷺ، ومنه ظهرت أعلام النبوءة، واتصلت المعجزات، ومنه كانت البعثة الشريفة، وفيه كان ابتداء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومنه أسري به عليه الصلاة والسلام، وكم وكم (هكذا في النص) له من الفضائل التي لا يتناولها الحد ولا يأتي عليها الإحصاء والعد. وكذلك طيبة المطهرة، فهي دار الهجرة وبها منازل الوحي، وفيها أكمل الله الدين، ومنها كانت البعوث والسرايا

---

(٤١) تسهيلا لقراء النص فضلنا إضافة العلامات من قبيل النقط والفواصل وغيرها التي لا وجود لها في الوثيقة.

والغزوات، وفيها أظهر الله الدين وأعز الإسلام والمسلمين، وفيها قبض روح رسول الله ﷺ [٣]، وفيها روضته بها جمع القرآن، ومنها استقامت الخلافة ووقعت الفتوحات في المشارق والمغارب، ومنها اجتثت قواعد أصول الدول الكبيرة الفارسية الكسروية والرومية القيصرية والتركية الخاقانية والديلمية والحبشية والبربرية، وكم لها من الكمالات التي لا تتناهى، والمحاسن التي لا تضاهى، ففضائل الحرمين الشريفين الله أعلم بها منا، والخلافة قدرها عند الله عظيم وثوابها عند الله جسيم وهي وراثة النبوءة، وقال ﷺ: "السلطان ظل الله في أرضه"(٤٢)، و"إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن"(٤٣)، فطوبى لمن طوقه الله بطوقها وعرف مقدار حقها، وقام فيما أقامه فيه سيده على قدم اعتنائه، وأدى شكر سابغ نعمه تعالى وآلائه، ونظر لأمة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ بما ينظر به لرأسه ونفسه، وعمل ليومه، واعتبر بما جرى عليه في أمسه، ولاسيما إذا كانت الخلافة في بيتها من قريش. قال عليه الصلاة والسلام: "الخلافة في قريش [٤] وغيرهم متغلب"، و"قدِّموا قريشا ولا تقدموها"، و"الأمراء من قريش"(٤٤). ولما أن جرى بين المهاجرين والأنصار، رضوان الله على جميعهم، من الاجتهاد والكلام ما جرا يوم سقيفة بني ساعدة، وقال بعض الأنصار ممن لم يكن، والله أعلم، سمع هذه الأحاديث الشريفة وهو يخاطب المهاجرين: "منا أمير، ومنكم أمير"، فقال له سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "منا الأمراء،

---

(٤٢) لم أقف له على أصل، ويعتقد أنه من الآثار. لكن هناك حديث نصه: "لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله في أرضه"، رواه الديلمي عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه.

(٤٣) ذكر ابن تيمية وابن كثير أنه من كلام عثمان رضي الله عنه.

(٤٤) لم أقف على صيغة هذه الأحاديث، لكن هناك ما يؤكد مضمونها بصيغ أخرى كما في صحيح مسلم "كتاب الإمارة" قوله ﷺ: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم"، وقوله أيضا: "الناس تبع لقريش في الخير والشر"، وقوله أيضا: "لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان".

ومنكم الوزراء"، وقام خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطيبا وأجاد، أبدأ وأعاد، وقال في آخر كلامه: "والله يا معشر الأنصار لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "الخلافة في قريش"(٤٥) ما أبعدتها منكم، ولكنكم كذا ولكنكم كذا يتمنى عليهم". ولكن ذاك كلام حق، ولو بقي رجل واحد من قريش ما طمع فيها غيره، وأنت والحمد لله من علياء قريش نسبا وحسبا، فاحمد الله على تلك النعمة التي ألبسك جلبابها وفتح عليك بابها، ولاحظ ما في الخلافة من الخيرات العميمة والأيادي الجسيمة [٥]، إذ بها تقام الحدود الشرعية وعليها تبنى الأحكام الدينية، وبها تصان أموال التجار وترغم أنوف الماردين من الفجار، وبها يستقيم الحج والجهاد، وبها ينتصف المظلوم من الظالم في سائر البلاد، وبها تأمن الرفاق في جميع الآفاق، ولله در القائل:

لولا الخلافة لم تأمن لنا سبل   وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

فمناصب الخلافة شريفة، ودرجاتها عند الله منيفة، ويكفيك من هذا ما وقع ليزيد مع أبيه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاءه ذات يوم في وقت لم يكن يأتيه فيه وهو يبكي، فقال له: يا أبت، أعتق رقبتي من النار، فقال له: وبم يا يزيد؟ قال له: بلغني عن رسول الله ﷺ حديث وهو قوله: "من ولي من أمر هذه الأمة شيئا ثلاثة أيام فعدل فيها حرم الله جسده عن النار"، فازداد به أبوه غبطة، ووعده بمطلبه. ومن أنعم الله عليه بولاية الحرمين الشريفين فهو الذي يجب على من يحبه أن يهنئه بما أنعم الله عليه، فهنيئا هنيئا لك بما خولك الله وأولاك[٦]، والواجب عليك أن تتعرف فضل الله ونعمه وتشكر كرمه، قال تعالى: و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقد قال رسول الله ﷺ: "فبروا النعم بالشكر"، وأنت وإن كنت والحمد لله من بيت

---

(٤٥) ورد في مسند أحمد: حديث بن عبدالسلمى أبي الوليد رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة، والهجرة في المسلمين والمهاجرين بعد".

العدل فقد ندب الله تعالى إلى التذكرة قال جل من قائل: "﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات: ٥٥]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]، وإذا صدرت التذكرة ووقعت الموعظة والتبصرة من أهل بيت واحد كانت أوقع في النفوس. وقد أودع الله سبحانه قلوبنا من المحبة لدينك الحرمين الشريفين، والحمد لله ما لا يكيف (هكذا)، وجبلنا على الرحمة والشفقة على سكانهما بما لا يوصف، نرجو من الله أن نفوز بذلك يوم القيامة، ومع هذا فالرجل لا تتوق نفسه إلى مسألة يخاطب بها ولا إلى نصيحة يؤديها إلا إذا عرف من نفسه أنها خالصة لوجه الله الكريم، وعرف ممن يخاطبه بها أنه يقبلها. فإن النصيحة كالحكمة التي قال فيها رسول الله ﷺ: "لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها [٧]، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم"، وأي فائدة وحكمة تكون أو تطلب ككلمة ينفع الله بها جمعا من المسلمين، وقد كنت قبل هذا في ولاية تلك الأماكن الشريفة، وسعدت بك وبأبيك من قبلك تلكم الأقطار كلها، إذ داركم دار الإمارة والمملكة والبركة يعرفها الناس قرباء أو بعداء بأسرهم، ويفدونها بأموالهم وأنفسهم، ثم كان من قدر الله ما كان، فأقمت سنين عديدة في غير أرضك ووطنك، وأصبحت مفارقا لأهلك وأولادك وسكنك، فليعتبر ابن عمنا بما فات عليه وليتذكر، قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، ووالله ما أنجزنا إليك هذه الرسالة إلا حيث علمنا وتحققنا أنها تنفعك، وتقع منك إن شاء الله كل موقع، ويحصل لنا الأجر والثواب من أجلها، ولو كان غيرك ما كانت تطيب أنفسنا مخاطبته بمثل هذا الخطاب، ووالله إلا كان ذلك الرجل ابن عمنا أحمد بن غالب هنالك وإن كنتما [٨] متساويين في النسبة الشريفة، فلم تسكن له أنفسنا، ولا طابت بولايته خواطرنا، وإن كان هو يعرف حقنا، ولا يجهل قدرنا، ودائما كان يكاتبنا ويواصلنا، ويعمل الخير مع أبناء عمنا، ولقد كان ابن عمنا مولاي

عمر بن هاشم رحمه الله أيام قدومه للحجاز تعارف معه، واصطحبا، وعمل معه خيرا كثيرا، ولما جاء من هنالك أعاد علينا جميع ما عمله معه من الخير، ومع ذلك فلم نجبه عن كتبه إلا بمجرد السلام والمواصلة، وقط ما خاطبناه بنصيحة ولا أدرنا معه كلاما بما هو زائد على السلام الواجب رده بين الأنام، وأما أنت والله كانت نفوسنا تميل إليك وتأنس بك. وعندما بلغ وفد الحجاج أول ما سألنا شيخ الركب الشيخ الحسيني عنك، فبشرنا برجوعك لبلدك ووطنك، وأخبرنا بعودتك لذلك الحرم الشريف بولاية عملك، ففرحنا بذلك فرحا كبيرا، وسررنا والله سرورا كثيرا، وحمدنا الله لكم وشكرناه وأثنينا عليه [٩] بما هو أهله، وطابت نفوسنا بولايتك وسكنت خواطرنا من جهتك، واستشرفت قلوبنا إلى تهنئتك، ففكرنا في قدوم الحاج لتلكم البلاد، فرأيناه يبطؤ علينا، وألقى الله في خلدنا هذا الكلام، وكتبنا به إليك. والله ثم والله ما شرعنا في كتبه لك إلا في اليوم الثالث من قدوم الحاج، واخترنا للسفارة هذا الرجل الذي يرد عليك به إن شاء الله، وهو ربي (هكذا) نعمنا وصيفنا الحاج أحمد لما عهدناه فيه من الفائدة والنجدة والصبر، وقد كان قبل هذا بالبلاد المشرقية وجال في تلكم الأقطار، وتردد ما بين حواضرها وبواديها سفيرا وساعيا بين تجارها وأعيانها نحوا من ثمانية عشر سنة، فهو يعرف تلكم النواحي كلها، ويصبر للطريق برا وبحرا، إلى ما يضاف إلى ذلك من مداخلته معنا وملازمته في غالب الأوقات لنا، فمن لدن رجع من المشرق وهو متصل الخدمة بنا عارف بما لم يعرفه غيره من سيرنا، وهو واحد من الملازمين لأعتاب [١٠] دارنا العلية بالله، فاخترناه لهذه المسألة من هذه الحيثية، وبادرنا لك بهذا الكتاب معه اعتناء بك وتأدية لنصحك، وأرجو الله تعالى أن يقع منك موقعا ننتفع نحن بثواب أداء النصيحة وتجار (هكذا) إن شاء الله عليها، وتنتفع أنت بقبول ذلك وبالعمل به، ويكون بحول الله وقوته سلما وسببا بيننا إلى

مواصلة كبيرة واستدامة مودات كثيرة، ونجد معا بركة لذلك الحرم الشريف في أنفسنا وذريتنا. وقد أحببنا من الله ومنك يا ولد عمنا أن تحتزم (هكذا) لهذا الأمر، ولا تأخذك في الحق لومة لائم، وتكون على أهل الباطل فظا غليظا، وعلى المستضعفين والمساكين وأهل الخير شفيقا رفيقا، وتراعي الله عز وجل وحرمه ورسول الله ﷺ في حرمه، وأي حرمة كحرمة أمته وأهل شريعته وملته، ولا تدع فيه بوجه من الوجوه ملحدا ناظرا لقوله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [**الحج**: ٢٥]، وقال رسول الله ﷺ [١١]: "أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومتطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه"(٤٦)، وأن تحب الضعفاء والمساكين الواردين على تلكم المعالم والمشاهد بقلب شائق وحب صادق لقوله عليه الصلاة والسلام: "ابغوني (في) الضعفاء والمساكين؛ فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم"(٤٧)، وأن تنصب من يوصل إليك حاجة الناس لقوله عليه الصلاة والسلام: "أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغ حاجته، فمن أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة"، وانصر الله ينصرك، قال الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [**محمد**: ٧]، وتعرف أنك مسؤول عن رعيتك قال عليه السلام: "كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته"(٤٨)، وتحافظ على مصدوق (هكذا) قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ [١٢] عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [**الحج**: ٤١]، واخش واتق دعوة المظلوم؛ ففي الحديث الشريف: "اتقوا

---

(٤٦) أخرجه البخاري.

(٤٧) حديث صحيح، ورد في صحيح الترغيب والترهيب، ح ٣٠٢٦؛ ورواه أبوداود في "مشكاة المصابيح"، ح ٥٢٤٦؛ وفي صحيح الترمذي، ح ١٧٠٢. "جامع الأحاديث والآثار التي خرجها وحكم عليها فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني"، إعداد أحمد آل عبداللطيف، المكتبة الإسلامية عمان ط١، ١٤٢٢هـ.

(٤٨) حديث صحيح، رواه البخاري.

دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب"(٤٩)، وانظر لما أوصى به لقمان الحكيم ابنه حسبما أخبر الله تعالى عن حكايته، قال عز وجل: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾** [**لقمان**: ١٧ – ١٨]، وصل رحمك فقد قال ﷺ: "صلة الرحم تزيد في العمر"، ولا يخفى على سيادتك ما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم في تلك الأماكن الشريفة، فاستقامت لهم الدنيا والدين، وصلحت بصلاح أحوالهم جميع أمور المسلمين، فالعدل حسن من جميع من ولاه الله من أمور أمة رسول الله ﷺ شيئا، وإذا كان من بيت النبوءة وجاء من بيت الطهارة كان أحسن، والعدل مطلوب ومستحسن في جميع الأقاليم وبقاع الأرض كلها، وإذا كان في [١٣] الحرمين الشريفين كان أشد استحسانا وأكثر غبطة. فولاية نحو يوم وليلة في ذلك الحرم يعدل الإنسان فيهما أحب إلى من نوَّر الله بصيرته من كلما (هكذا) يهواه ويتمناه، فنحب منك أن تأخذ بطريق العدل والحزم وحسن التدبير في جميع أحوالك وتكون ضابطا محتزما (هكذا) في كلما (هكذا) هنالك، فما كتبناه لك إلا ثقة بأخوتك وحمية على مروءتك وصحبة فيك واعتبارا بما فات عليك، والكيس من الناس من دان نفسه وقدم أمور دينه على أمور دنياه، وزهد فيما عند الناس رغبة فيما عند الله، والعاقل من نظر في العواقب فتدبرها، ونظر لما فات عليه من الأمور وتذكرها، ففي كلام الحكمة: تعاقب الأحفاد بما فعلته الأجداد، فلينظر أخونا وابن عمنا لنفسه وولده ويعمل بما يرضي ربه في بلده، فقد حملتنا محبة ذلك الحرم الشريف وإيثار ذلك الجناب الطاهر المنيف على تذكرتك ونصيحتك، وقد عودنا الله سبحانه التذكرة والنصيحة لجميع من عرفناه من المسلمين ووجدنا [١٤] (الصفحة الأخيرة مبتورة [١٥])".

---

(٤٩) في رواية أخرى: "اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" متفق عليه.

الملاحق

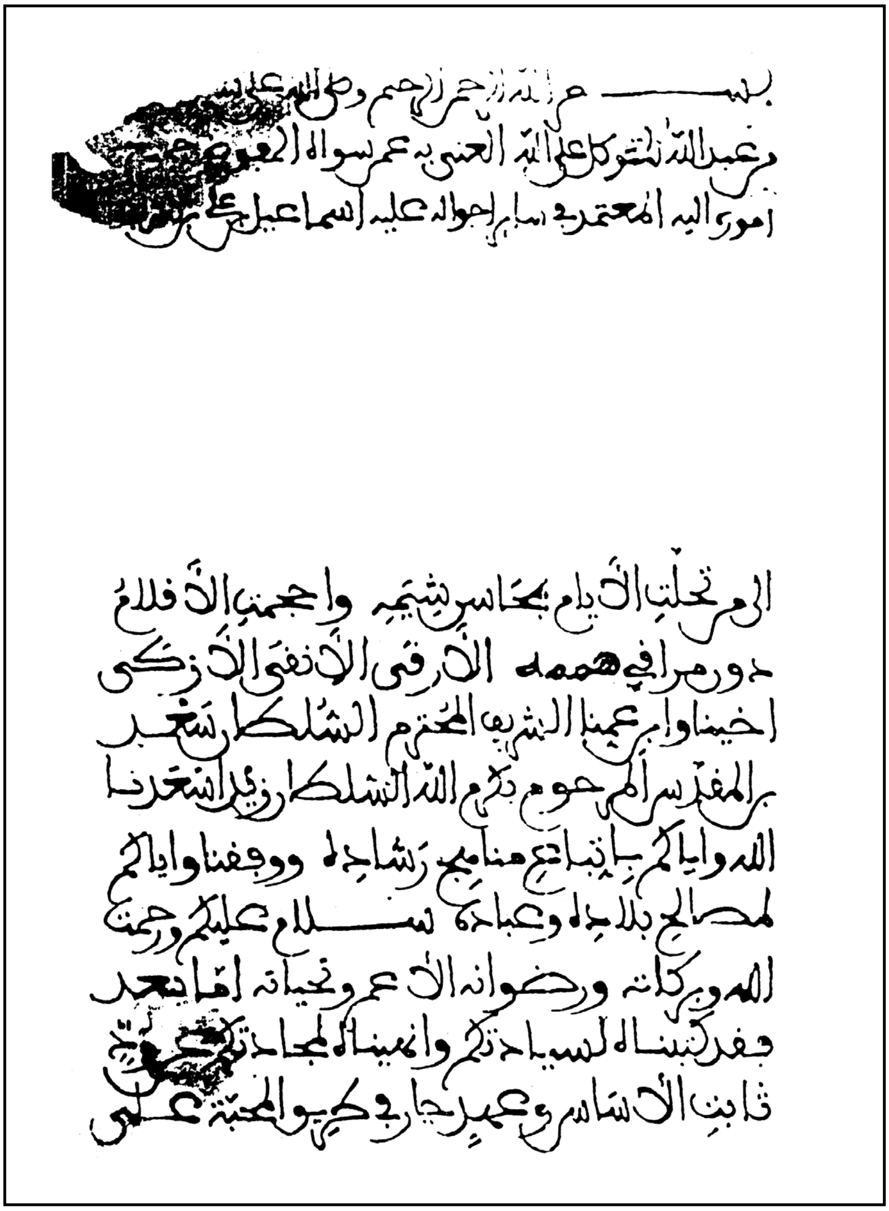

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا [illegible]
من عبد الله المتوكل على الله الغني به عمن سواه المفوض [illegible]
أموره إليه المعتمد في سائر أحواله عليه إسماعيل بن [illegible]

إلى من تحلت الأيام بمحاسن شيمه واحجمت الأقلام
دون مراقي همته الأرقى الأنقى الأزكى
أخينا وابن عمنا الشريف المحترم السلطان سعد
بن المقدس المرحوم بكرم الله السلطان زيد أسعدنا
الله وإياكم باتباع مناهج رشاده ووفقنا وإياكم
لمصالح بلاده وعباده سلام عليكم ورحمة
الله وبركاته ورضوانه الأعم وتحياته أما بعد
فقد كتبناه لسيادتكم وإنهيناه لمجادتكم [illegible]
ثابت الأساس وعهد جار في طريق المحبة على

الصفحة الأولى من الرسالة

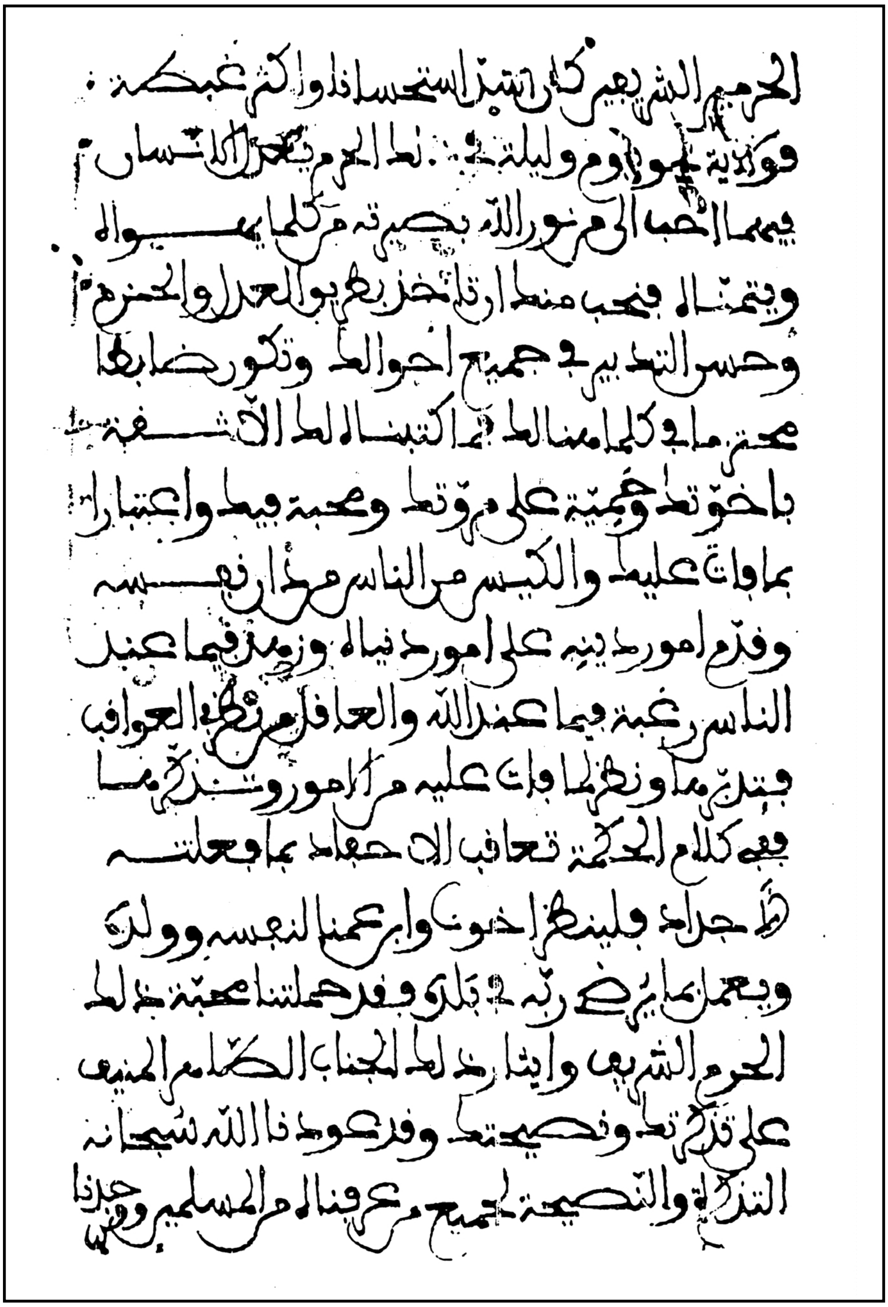

الحرم الشريف كان تتبين استحسانك واكثر غبطة
فولاية لهو يوم وليلة في ذلك الحرم يتحصل للانسان
فيهما الحب الى من نور الله بصيرته من كلما يهــواه
ويتمنــاه فيجب منك ان تاخذ رعيتك بالعدل والحزم
وحسن التدبير في جميع احوالك وتكون رضاك
محصورا في كلما هنالك ثم اكتسبنا لك الاشــفقة
باخوتك وحمية على من تحتك ومحبة فيك واعتبارا
بما فات عليك والكيس من الناس من دان نفســه
وقدم امور دينه على امور دنياه وزهد فيما عند
الناس رغبة فيما عند الله والعاقل من نظر في العواقب
فيتدبر ما ورائها فات عليه من الامور وشــبهها ما
في كلام الحكمة تعاقب الاحفاد بما فعلتــه
الاجداد فلينظر اخونا وابن عمنا لنفسه وولده
ويعمل بما يرضي ربه في بلده وقد حملتنا محبة في ذلك
الحرم الشريف وايثارنا لذلك الجناب الكامل المنيف
على تذكرتك ونصيحتك وقد عودنا الله سبحانه
التذكرة والنصيحة لجميع من عرفنا من المسلمين وحدنا
وفقها

الصفحة الأخيرة من الرسالة